الرباط الزوجي: قدسية وتحقيق للذات
في القرآن الكريم وفي علم النفس الحديث

(النص باللغة الانكليزية وُزّع في معرض فرانكفورت 2005)

رندة حموي

من آيات الله سبحانه وتعالى أن خلق لنا من أنفسنا أزواجاً لنسكن إليها وجعل بيننا مودة ورحمة، ثم رزقنا البنين والحفدة والطيبات؛ قال تعالى في سورة الروم [30:21]:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

وفي سوره النحل [16:72]:

﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾

وما كان ليتم ذلك إلا بعد أن تأخذ النساء ميثاقاً غليظاً من الرجال المتقدّمين للزواج بهنّ؛ سورة النساء [4:20]:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

فما هي الدلالات التي تشير إليها الآيات الكريمة المذكورة أعلاه، وهل بإمكاننا - بعد التدقيق في معانيها- هل بإمكاننا إدراك أبعاد لغوية أوعلمية تفيدنا على المستويين الفردي والاجتماعي؟

الميثاق في القرآن الكريم:

لابد لنا أولاً من التوقُّف عند التعبير القرآني "ميثاقاً غليظاً"، حيث تُبين لنا المعاجم (كمعجم مقاييس اللغة لابن فارس ومختار الصحاح للرازي) أنَّ "الميثاق" هو العهد المُحكَم، وأما "الغليظ" فهو القوي الحازم. فالميثاق الغليظ إذاً هو العهد المُحكم القوي والحازم تأخذه جهةٌ من جهةٍ أخرى عليها الوفاء بالتزاماته، ولا يوجد في القرآن أي تعبيرٍ أقوى أو أشد لِما يمكن أن يربط بين طرفين مِن عهود، فيصبح بذلك أحدهما في موضع مساءلة من قِبَل الآخَر.

وقد ورد تعبير "ميثاق غليظ" مرتين أخريين وذلك في معرض أخذ الله سبحانه من النبيين كافة "ميثاقاً غليظاً"، وفي أخذه الميثاق الغليظ كذلك من بعض أتباعهم؛ سورة الأحزاب [33:7]:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا" لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

وفي سورة النساء [4:154]:

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾

لقد أخذ الله عزَّ وجلَّ من النبيين ميثاقهم وهو ميثاق غليظ، ونستَشِفّ من وصفه بالغليظ ثقله وأهميَّته، فنصّ ذلك الميثاق الغليظ الذي أخذه الله منهم ومن أتباعهم هو "الصدق" الذي يَسأل الله به الصادقين عن صدقهم. ومما لا شك فيه أنَّ المكانة الرفيعة للميثاق الغليظ بحسب وصف الله له "غليظاً" لا تقلّ غِلظةً ومسؤوليةً حين تنصَبُّ على الرجال حال زواجهم، بل واضح أنَّ الرجل هو المسؤول أمام المرأة آخذة الميثاق منه وليس العكس، فالمساءلة تقع عليه كما وقعت على النبيين وأتباعهم، وإلا لما جاء اللفظ القرآني مماثلا.

ولكن، ما هو صدق الصادقين الذي يسألون عنه و"الميثاق الغليظ" الذي أخذه الله منهم؟

يعتقد البعض أن الإجابة تعود إلى العلاقة الأزلية بين الإنسان وخالقه، المذكورة في سورة الأعراف [7:172]:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ* أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

تشير هذه الآية إلى علاقة أزلية بين الرحمن، وهو ربنا الذي خلق، وذرية آدم. إنَّه تحاور يَشهد انطلاقَةِ نفخة الروح من مصدرها الإلهي قُبيل استقرارها المؤقَّت في النفس الإنسانية المتعلِقة بأجسادها البشرية الفانية. إن الأنفس- في هذه المرحلة المُبكِّرة من وجودِها- تتعرَّف إلى ربها وتشهَدُ بوحدانيَّته فتُحذَّر من الادِّعاء بأن الغفلة أو التبعية هما من أسباب تحييدها عن شهادتها تلك.

طالما ذكر المفكّرون أن تطلّع الإنسانية إلى إيجاد معنى روحي للحياة هو في حقيقة الأمر لا يعدو أن يكون بحث النفس عن المصدر الإلهي لوجودها. إن النفس البشرية- في طيّات باطنها- تتذكر تلك

الشهادة الأزلية التي كانت ميثاقاً غليظاً اقتطعته على نفسها قُبيل رحلة الحياة التي أبحرت بها مبتعدة عن مصدرها، وهي لا بد راجعة إليه لتُسأل.

ومن الجدير بالذكر هنا أن (كارل يونغ) كان قد قدّم تحليلاً في علم النفس الحديث عبر نظرية أسماها (اللاوعي الجماعي) شرح من خلالها بعض الظواهر البسيكولوجية التي يصعب تفسيرها، والتي تظهر فيها مشاركة للإنسانية جمعاء بأمور خارجة عن الوعي ولا علاقة لها بواقع الفرد أو بمعارفه أو تجاربه. ويعتقد (يونغ) أن الناس يشتركون على مستوى اللاوعي بحصيلة ما قد انطبع على نفوس أسلافهم من المعارف والتجارب. ومما يتوقفنا هنا، أنه إذا كان لنا أن نأخذ مفهوم (يونغ) عن اللاوعي الجماعي فنعود به إلى نقطة بداية وجودنا، فإنه يمكن لنا بذلك أن ندعم أحد أفضل التفاسير لهذه الآية الكريمة!

لقد تبين لنا من كل ما ذكرناه بالغ أهمية الميثاق الغليظ كعهد مساءلة يأخذه طرف من الآخر ويصل فيما يبدو إلى درجة التقديس، ففي القرآن الكريم تأخذ الزوجة من الزوج "ميثاقاً غليظاً"، وقد أخذ رب العالمين "ميثاقاً غليظاً" من النبيين وكذلك من الصادقين، وربّما المعنيون هم جميع ذرية آدم في الأزل.. والله أعلم.

ويمكن لنا الآن أن ننظر إلى القرآن الكريم وإلى علم النفس الحديث لنتعرف إلى مواصفات الزواج الناجح، فنناقش وظيفة رباط الزوجية وكذلك الهدف منه لنكشف بذلك الصلة بين ما هو أزلي وما هو دنيوي فنحصل على فهم أفضل لآيات الله سبحانه وتعالى.

وظيفة الزواج في القرآن الكريم:

جاء في القرآن أن كلاً من الزوجين لباس أحدهما للأخر، ففي سورة البقرة [2:187]:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ..... ﴾

ويبيّن لنا القرآن الكريم "اللباس" في مستويات ثلاثة، ففي سورة الأعراف [7:26]:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

فاللباس أنزله الله علينا لينفعنا إذاً على مستويات ثلاث:

- الحدِّ الأدنى الضروري للبقاء والعيش الكريم: يحمينا اللباس بإخفاء وتغطية سَوْءَاتنا، والسوءة هي كل ما يسوؤنا ويسبب لنا الضر والأذى، فأبداننا العارية تتأذى من عوامل الطبيعة، وكذلك تتأذى مروءتنا من العري التام، وفي الحالتين يحمي اللباس ضعفنا ويوفر حاجتنا.
- المستوى الثاني من اللباس هو لرفاهية الإنسان: بعد تحقيقه الحد الأدنى الضروري، يُتَّخذ اللباس للتزين والمتعة، وقد وصفه القرآن بالريش ومنه جاءت كلمة "rich" في اللغات اللاتينية.
- المستوى الثالث للباس وهو خيرها: بعد تحقيق المستوى الضروري ثم الجمالي تتحول هممنا إلى اللباس النفسي الذي ينبع من إدراكنا لذاتنا ولِما حولنا وللغرض من وجودنا أصلاً- وهذا اللباس هو لباس التقوى وهو خير وهو من آيات الله سبحانه وتعالى.

وإذا قمنا الآن بجمع معاني اللباس أعلاه في القرآن ومقارنة مدى توافق تلك المعاني مع كون الزوجين لباساً أحدهما للآخر، نجد أن الزواج يؤدي إلى أن:

- يحمي كل منهما الآخر من الأذى الجسدي والعاطفي.
- يزين كل منهما حياة الآخر في هذه الدنيا ويزيدها متعة.
- يخلق بين الزوجين جوَّاً من الإدراك والتقوى يقودهما إلى تحقيق ما يصبوان إليه جسدياً ونفسياً وروحانياً.

إن وظيفة الزواج هي إلباس كل من الزوجين للآخر ما يحتاجه في تلك المستويات الثلاثة، بحيث يهيئ كل مستوى للذي يعلوه الأرضية المثلى للارتقاء.

أما المستوى الأخير-لباس التقوى- فهو المحصّلة الروحانية للزواج الناجح، ينبعث من جوهر وجودهما لدى خالقهما في الأزل لينير دربهما المشترك وهما يكبران معاً في جوٍّ خالٍ من العدوان (فالعدوان هو خلاف التقوى 5:2؛ 58:9)، مؤديان بذلك دوريهما في الدنيا، متطلّعان معاً إلى الآخرة. ويبدو أن كون كل من الزوجين للآخر "لباس تقوى" هو ما جعل من الزواج عُقدةً مقدسةً - ميثاقاً غليظاً أودعه الله سبحانه في عهدة الرجل.

ولكن مع ذلك، فإن أي نجاح يحتاج إلى شروط ملائِمة، ولكي يكون كل من الزوجين لباساً مثالياً للآخر يتوجب أن يعيشا في جو من السكينة، يتبادلان المودة والرحمة؛ الروم [30:21]:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

إن المنشودات الثلاث، السكينة والمودة والرحمة، ليست هي نتيجة زواج ناجح، بل إن المودة والرحمة هما العنصران الأساسيان اللذان *يقودان* إلى السكينة، وسنقوم بمناقشتهما بالتفصيل لاحقاً. *أما السكينة فهي الغرض كل الغرض من الزواج!* وسنرى الآن كيف أن وظيفة الزواج وهي اللباس، والغرض من الزواج وهو السكينة، يجتمعان معاً في القرآن الكريم.

الغرض من الزواج في القرآن الكريم:

يخبرنا القرآن الكريم أن الغرض من التزاوج هو أن يسكن كل مِنَّا إلى زوجه (لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) ، وسَكَنَ في اللغة هي عكس اضطرب، والسكن هو كل ما سكنتَ إليه من محبوب، والمسكِن هو المنزل، والسكينة الوقار. فالراحة والهدوء والاستقرار والإيواء والمحبة والوقار كلها مفاهيم تندرج تحت كلمة "سكن".

وقد ورد في قوله تعالى أيضاً في الأعراف [7:189]:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

فالسكينة هي الشعور بالطمأنينة والراحة والقناعة والإكتفاء التي يحصل عليها كلا الزوجين أحدهما من الآخر جسدياً وفكرياً وعاطفياً وروحياً.

بعد أن تحدَّثنا عن المدلول القرآني لمفهوم الإلباس كوظيفة للزواج نتساءل الآن: ما هو المدلول القرآني "للسكينة" كغرض لهذا الزواج؟؟ أي إذا كان الزوجان كاللباس أحدهما للآخر، يقيان بعضهما فيرتقيان معاً إلى التقوى وفي أثناء ذلك يوفِّران لبعضهما السكن والسكينة التي لا يشوبها عدوان... فما هو الغرض من السكينة نفسها؟

إنَّ تدبُّر القرآن يجري من خلال البحث في آياته فالقرآن يفسِّر بعضُه بعضا.

تُرى، هل ورد ذكر "السكينة" في موضع آخر من القرآن الكريم؟ وبأي سياق؟

بمثل هذا البحث تنكشف المفاجأة، إذ نجد أنها توجد -بالإضافة إلى قوله أنَّه جعل/خلق لنا من أنفسنا أزواجا- آية أخرى من آياته سبحانه وتعالى دالَّة على ما جعله لنا لباساً وسكناً، ألا وهو الليل.

ففي الفرقان [25:47] قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾

وفي النبأ [78:10]: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾

وفي يونس [10:67]: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

هذا التوافق بين الزواج والليل ذا دلالة عظيمة! فالزوجان والليل سُميا لباساً، والزوجان والليل للسكن أوالسكينة. وبالكشف عن غرض السكينة في الليل قد نتمكَّن من أن نكتشف غرض السكينة في الزواج.

ففي الفرقان [25:62]: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾

فكلمة شكر تعني الامتلاء أو الغزارة في الشيء الذي ينمو ويزداد بالعمل فيه، وغالباً ما يكون العمل نهاراً. أما الليل فهو للتذكر، والتذكر رياضة روحية لايمكن تحقيقها إلا في حالة السكينة والهدوء. إن السكينة ضرورية إذاً لرفع المستوى الروحي وبالتالي للازدياد إيماناً، ففي الفتح [48:4]:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

فإن الغرض من السكينة إذاً هو تأمين الجوّ المناسب للتذكّر، نزداد فيه إيماناً مع إيماننا، ذاك الإيمان الذي جعل الله تعالى من أجله الليل لنا، نلبس عتمته وسكنه لننام حيناً ونتذكر حيناً آخر، فنجدد نشاطنا الجسدي والعقلي والعاطفي والروحي لمباشرة النهار الذي يخلفه. ذاك الإيمان الذي خلق الله تعالى من أجله الأزواج لنا، لباساً نسكن إليها بعد أن ارتبط أحدنا بالآخر باسمِهِ تعالى لتحقيق ذلك الهدف.

يتشارك "الميثاق الغليظ" الذي أخذه رب العالمين من ذرية آدم في بداية التكوين، و"الميثاق الغليظ" الذي تأخذه الزوجة من زوجها قبيل حياتهما معاً، يتشارك هذان الميثاقان الغليظان في علاقتهما الوطيدة برحلة الإنسان الإيمانية.

فالأول كان عهداً منّا أن نقوم بتلك الرحلة، والثاني هو العتاد المثالي الذي يعيننا على إتمام تلك الرحلة.

صفات الزواج الناجح: دراسات بسيكولوجية وأضواء قرآنية

تقاس نجاح العلاقة بين الزوجين في دراسات علم النفس الحديث بواسطة "مثلث الحب" الذي وضعه عالِم النفس وأستاذ التنمية البشرية روبيرت ستيرنبرغ (1949-) وعناصر المثلث هي: الإلتزام والحميمية والشغف. ويعرّف هذا العالِم، بل ويشرح أعماق كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة بما يشبه ما جاء في القرآن الكريم منذ خمسة عشر قرناً.

1. يقول ستيرنبرغ أن أول عنصر من عناصر "مثلث الحب" هو الالتزام/commitment ويعتبر ذلك أساساً لكل ما يأتي بعده. أما المِلَل كلها فإنها كمثل ذلك، تعتبر عقد الزواج ملزماً بين الزوجين بل مقدساً، ويسميه القرآن الكريم "ميثاقاً غليظاً".
2. يقول ستيرنبرغ أن العنصر الثاني في "مثلث الحب هو الحميمية/intimacy ويعرّفه بأنه شعور الزوجين بالاندماج أحدهما بالآخر، أو على الأقل اتفاقهما على أن يشتركا معاً جسدياً وعاطفياً

وعقلياً واجتماعياً وترفيهياً، كل مع الآخر. وقد ورد ذكرهذا العنصر في الجزء الثاني من آية سورة الروم [30:21] بلفظ "مَوَدَّة":

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

يخبرنا القرآن الكريم أن رسولنا وبقية الرسل عليهم السلام كانوا دائماً يقولون لقومهم: "مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ" إلا أن ثمة شيء واحد أمر الله سبحانه محمداً ﷺ أن يطلبه من قومه قريش [الشورى 23-42]:

﴿.... قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

إن المَوَدَّة -وهي التوافق في حدِّها الأدنى والحميمية في حدِّها الأعلى- تنتقل عبر الأبوَين لتشمل أولي القربى فيلتقون بدرجات معيَّنة من التوافق ويتمتعون بدرجات معيَّنة من الحميمية بعضهم للآخر. إنها "المَوَدَّه في القربى" وهي التي أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يسألها من قومه الذين شاركوه المَوَدَّة والعيش الكريم طيلة أربعين سنة وفيهم أعمامه وأبناء عمه وأصهاره- يقابلونه بعد أن تلقَّى رسالة ربه بفسخ أواصر المَوَدَّة كلها بما فيها عقود زواج بناته.

إن التوافق عنصر رئيسي في الزواج الناجح ويشتد ليصبح حميمية في الزواج المثالي، وهذا ما يسميه القرآن الكريم "مَوَدَّة".

3. ويقول ستيرنبرغ أن العنصر الثالث في مثلث الحب هو الشغف/passion ويُعرّفه بأنه حالة من التَوق الشديد إلى تبادل الحب، ينجم عنه شعور بالإشباع والنشوة. ومما يثير الاهتمام أنَّه بِتَوَسُّع ستيرنبرغ في تعريفه قال أن التعبير عن هذا الشغف يكون إما بالعلاقة الجنسية، أو بالملامسة، أو بالتقبيل، أو حتى بالنظرات.

4. ***وعلى الرغم من أن الشغف بين الزوجين كثيراً ما يتمثل بالاتصال الجنسي، فإن علم النفس لايعتبر ذلك التمثل الأكثر أهمية، بل يؤكد أن أهم تعبير عن الشغف بين الزوجين هو في الرعاية التي يوّليها كل منهما للآخر جسدياً ومعنوياً، وفي المساندة التي توصله إلى تحقيق ذاته وبعث قدراته الكامنة.***

أليس تقييم علم النفس الحديث لقوة الرباط الزوجي بالتعبير عن أنه يتمثل بالرعاية المتبادلة بين الزوجين، تلك الرعاية التي هي أهم تعبير عن الشغف، أليس هذا التقييم مؤكِّداً لِما فهمناه من القرآن الكريم عن وظيفة

الزواج في أن يصبح الزوجان لباساً كل منهما للآخر؟ أليس منح كل من الزوجين للآخر ما يتطلبه على المستويات الجسدية والنفسية والروحية حيث يحقِّق كلٌّ منهما قدراته الكامنه.. أليس ذلك موازياً لكون أزواجنا لنا ونحن لهم لباساً يواري أحدنا للآخر سوءاته وريشاً، فنرتقي معاً بلباس التقوى؟

إنَّ الارتباط بين الزوجين في القرآن الكريم هو نقطة الانطلاق للاثنين معاً نحو تحقيق الذات في كافة المستويات الجسدية والاجتماعية والفكرية والروحية، ويتم ذلك "بعُقدة" نكاح، وليس "عَقد" نكاح كما جَرَت

تسميته عموماً! إن الفرق شاسع بين العُقدة والعَقد، ففي حين أن العَقد هو اتِّفاق لا عاطفة فيه يُبرَم بين جهاتٍ عِدّة -وقد يكون جائراً من منظور أحد الأطراف- فإنَّ العُقدة كما سمّاها ربُّنا في تنزيله هي التي فيها معنى الارتباط الحقِّ الذي يرضيه، ذلك أنَّه، وبالرغم من كل المحاولات، لن تتشكَّل أيَّة "عُقدة" جيدةٍ إلا بين طرفين اثنين ويجب أن يكونا متماثلين في النوع والسماكة، فخيط الحرير لا يُعقَد مع خيط الصوف ولا الحبل الثخين مع الحبل الرفيع. ثمَّ حين يتم ربط العقدة نجد الطرفين المتماثِلَين متداخِلَين بعضهما في بعض مُتَّحِدَين قد تقوَّى أحدهما بالآخر، واختلاف لونَيهما لن يضعف العقدة بل قد تزداد جمالاً.
هذا هو اللباس الفعلي، كل من الزوجين يواري سوءة الآخر ويلبسه ريشاً ليرتقيا معاً بلباس التقوى ويحقِّقا قدراتهما المكنونة.
أليس تحقيق قدراتنا في كل مرحلة من مراحل حياتنا حلم كل واحد منّا ؟ لكن، ومع ذلك، فإن القليل مِنَّا يجد -أو يساعد على إيجاد- الظروف الملائمة لنمو القدرات، وكثير مِنَّا يبقى طيلة حياته دون أن يُنَمِّي مواهبه أو يحقق قدراته. إنه لمن المؤسف حقاً أنَّ فشل الكثيرين في السعي إلى تحقيق ذاتهم -وربّما عدم تمكُّنهم من ذلك- يعود إلى قيود وضعوها هُم على أنفسهم أو إلى مفاهيم اجتماعية أو دينية خاطئة أحلَّت العدوان مكان التقوى.

كما رأينا، كان العنصر الثاني في "مثلث الحب" الذي وضعه ستيرنبرغ هو الحميمية/intimacy أو التوافق/agreement وقد عبر عنه القرآن الكريم بالمَوَدَّة.
أمّا العنصر الثالث وهو الشغف/passion الذي يتمثَّل أفضل ما يتمثَّل بالرعاية الكاملة/nurturance فإنَّ القرآن الكريم يعبّر عنه بالرحمة.

الرعاية من "الرحمة" في القرآن الكريم!

كيف عبّر عن الرحمة:

1. ذكر عن الرسول ﷺ في سورة الأنبياء [21-107]:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

2. علاقته صلوات الله عليه بصحابته؛ آل عمران [3-159]:

﴿فبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

واللين هنا من رحمة الله وهو عكس غلظة القلب، ونسميها باللغة الدارجة "مخ سميك" فالقلب هو ما نعقل به ونفقه ونتدَبَّر.

3. في علاقاتنا العائلية :

- إننا نربي أولادنا ونقدم لهم الحنان والرعاية دون قيد أو شرط، ونرحمهم أطفالاً وشباباً وحتى بعد انطلاقهم إلى حياتهم المستقِلَّة. ثم يرزقنا الله منهم الحفدة فنبدأ من جديد.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلي النبي صلى الله عليه وسلم فقال تُقَبِّلون الصبيان- فما نُقَبِّلُهُم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أوَ أملِك لك أن نَزَع الله من قلبك الرحمة." رواه البخاري

- إننا نحسن إلى والدينا فنعاملهم بالحنان والرحمة اللذين –في حال بلوغهم الكبر- يضاف إليهما حصر أقوالنا فيما هو كريم وخفض جناح الذل، وتستمر علاقتنا بهم بعد مفارقتهم الحياة الدنيا من خلال الدعاء لهم بالرحمة؛ الإسراء [17-23,24]:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا* وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

يبدو أن للرحمة عدة جوانح، والجوانح هي كالأضلاع. وأحد جوانح الرحمة هو "الذل" الذي يأمرنا الله سبحانه بالتحلّي به في ظَرْفٍ واحدٍ هو أثناء تعاملنا المباشر مع والدينا المسنّين الذين من حقِّهم وقد بلغوا الكبر أن يكونوا "عندنا" فيسكنوا معنا لنقدم لهم الرعاية الكاملة المُثلى لهم وهي الرحمة المتَّصِفة بخفض جناح الذل لهم. ويجب هنا ألّا نخلط بين الذُل وبين الخشوع، فالشعور بالخشوع حالة إيجابية يتحلَّى بها المؤمن تجاه ربه سبحانه وتعالى، أما الشعور بالذل فهو مَعيب في شتى الظروف ولا يرضاه الله لا لِلمؤمن ولا مِن المؤمن أبداً إلا أن يكون من رحمة الأبناء بوالديهم المسنين! وبناءً عليه نجد أن القرآن الكريم لم يورد وصف الذل في غير موضع إلا أن يكون وصفاً للذين ظلموا أنفسهم واستحقوا الذل

والعذاب والخزي في الآخرة.

لقد اعتبر رسولنا ﷺ التقبيل -كما رأينا- تعبيراً عن الرحمة، ورأينا كيف يصوِّر القرآن الكريم الرحمة فيحفُّها بالرعاية والعطف ويذكر أنها - أي الرحمة -آية من آيات الله التي جعلها بين الزوجين.

ثم نجد، وبعد خمسة عشر قرناً، عالِم النفس ستيرنبرغ يقول أن أقوى تعبير عن الشغف هو الرعاية، ولا عجب فالرعاية تتطلب جهداً أكبر وصبراً أطول من العنصرين الآخَرَين (الالتزام-الحميمية أو الاتفاق).

كما وأنها – أي الرعاية- يجب الحفاظ لها على مستوى ثابت خلال كل مراحل الحياة الزوجية، خاصة عندما يودِّع الزوجان أولادهما وقد كبروا، ويبدئان معاً رحلة التقدُّم في السن.

وبالمناسبة، فإن علم النفس الحديث يرى أنه في حال فقدان عنصر من العناصر الثلاثة الآنفة الذكر، لا يمكن للزواج أن يكون ناجحاً، بالإضافة إلى أن وجود بعض العناصر دون غيرها يقضي على العلاقة نهائياً. وإذا أردنا التفصيل نقول:

إن وُجِدَ الشغف/passion وحده، تسمى العلاقة افتناناً أو انبهاراً/infatuation، وهي لا تدوم.

أما الحب الرومانسي/romantic love فإنَّه يضيف الحميمية/intimacy إلى الشغف، ولكنه بسبب فقدانه الالتزام/commitment أيضاً لا يدوم.

أما الحب الصُحبي/companionate love فإنَّه يجمع بين الالتزام والحميمية ولكنه يفتقر إلى الشغف.

توجد في هذه العلاقة عناصر الاستمرارية التي تعطيها الدوام في الغالب ولكنها لا تدفع بالزوجين قُدُماً وفي أثناء ذلك غالباً ما لا يكون كل منهما عوناً للآخر في تحقيق ذاته. إنَّ الأزواج المحبطين الذين لا يتبادلون الشغف -الذي هو في حقيقة الأمر اهتمام ورعاية- لايهيؤون الجو الملائم لاستخراج طاقاتهم الكامنة ومن ثم لا يفيدون ولا يستفيدون من طاقاتهم كأزواج أو كأفراد مجتمع.

إن الزواج الناجح هو ذاك الذي يجمع العناصر الثلاثة بحبٍ كامل/consummate love وذلك بالتالي:

الالتزام: ويبدأ بالميثاق الغليظ الذي تأخذه الزوجة من زوجها حين تبرَم عقدة النكاح.

الحميمية: وهي المَوَدَّة التي جعلها الله بين الزوجين الملتزِمَين أحدهما للآخر.

الشغف والرعاية: وهي الرحمة التي جعلها الله بين الزوجين الملتزِمين الوادَّين أحدهما للآخر، وإنها في الزواج المثالي لاتفارقهما أبداً: تبدأ مع بداية الزواج وتفجَّر مع الأمومة والأبوة لتحتمل مسؤولية الأولاد وتحنو للوالِدَين المسنين ثم تبقى الرحمة دوماً تتوّج حياة الزوجين حتى تشهد قدوم الحفدة ثم الهَرَم فيحنو عليهما أولادهما خافِضَين لهما من خلالها جناح الذل، ثم داعين لهما "رب ارحمهما كما ربياني صغيرا"!

لقد دلَّنا القرآن الكريم على وظيفة الزواج وعلى الغرض منه، فكون الزوجين لِباساً أحدهما للآخر هووظيفة الزواج، والسكينة هي الغرض منه، يجتمعان لدعم الزوجين الناجحين في رحلة حياتهما عبر آفاق التقوى إلى الرضا- وذاك هو الهدف- ليس من الزواج فحسب، بل ربما من وجودنا، لنكون في

نهاية المطاف ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه.

ولكن من المعلوم أن بعض المتزوجين غير متآلفين وأن ثمة أناس يقضون العمر كله بلا زواج، فهل يحققون ذاتهم؟ قد يستطيع الأشخاص غير المتزوجين تحصيل الرضا الذاتي فكرياً وروحياً واجتماعياً، بالرغم من افتقاد العلاقة الجسدية، وذلك في دائرة أشخاص آخرين يشاركونهم اهتماماتهم. والواقع أنه من الأسهل لهؤلاء أن يحققوا ذاتهم مقارنةً بالأزواج غير المتآلفين، وقد يكون ذلك هو أحد الأسباب الرئيسية لوجود الطلاق في الإسلام، فإن لم يتسبب الطلاق بالإضرار لأحد -كأن يكون هناك أولاد صغار- نجد أن التفريق بين الأزواج المحبطين بمثابة انطلاقة لهما تزيد من احتمال إيجاد السكينة والتقوى ومن ثم السعي إلى تحقيق ذاتهم وإستخراج كوامن ما وهبهم الله.

خـاتـمـة

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿الروم: ٢١﴾

إذا نظر الزوجان إلى عقدة النكاح نظرة صحيحة وجَهِدا لإعطائها حَقَّها نجدهما يتقاسمان ما وهبهما الله بالتساوي، كل منهما لباس للآخر يمنحه السكينة والمودة والرحمة - الرحمة التي ليس فيها جناح ذل لأي منهما، بل هي شراكة بينهما وثَّقها الميثاق الغليظ- وبذلك يضفي كل منهما على الآخر الرعاية الضرورية لتحيقق النماء كزوج وكفرد في المجتمع.

وإذا تساءل أحدنا عن سبب كون الرجال أكثر مسؤوليةً أمام الله وآخذات الميثاق الغليظ منهم هنَّ النساء، فالإجابة تبقى في علم الله ولكن لا بد أن يكون لأرحامهنَّ المُحصنة ولأمومتهنَّ فضل في ذلك.

يُروى أن رسولنا ﷺ قال أن الزواج نصف الدين، وربُّنا - الذي إن نعُدُّ نعمته لا نحصيها- جعل الزوج للزوج لباساً وسكناً وجعل بينهما المودة والرحمة بعد أن غلَّظ الميثاق الذي ربطهما في مقتبل العمر ليضع كل منهما- و بالتالي أولادهما ومجتمعهما- على درب النجاح في هذة الحياة الدنيا الموصِل إلى الآخرة .

هذه هي وظيفة الزواج، وهذا هو الغرض منه، وهنا مَكمَن قدسيته، ولهذا فإن من واجب المؤمنين أن يثمِّنوا الرباط الزوجي ويحفظوا ميثاقه ويدعموا أواصره، فهو أحد آيات الله الخالق، وأحد نِعَمِ الله الرازق، وثاني الميثاقين الغليظين اللَذين ألزَمَنا الله بهما.